

شيوخ قبيلة الحنانشة خلال القرن الثامن عشر:

ابراهيم بن بوعزيز وابنه بوحفص

(1755-1795م).

أستاذ مؤقت : يعقوب خديجة

جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

khedidja-yakoub@outlook.fr

تاريخ الوصول : 18 – 03 – 2020 القبول : 28-03-2021 النشر على الخط:.....

.....Received :..... Accepted :..... Published online :.....

الملخص:

يعتبر شيوخ قبيلة الحنانشة المتوطنة على حدود بايلك الشرق الجزائري خلال العهد العثماني، من أهم الفاعلين المحليين في دواخل البايك، وتعود هذه الأهمية إلى المكانة الاجتماعية التي حظيت بها أسرة أحرار الحنانشة، وإلى المهام والوظائف الاجتماعية والمخزنية التي كلفوا من طرف البايك كجباية الضرائب والحفاظ على الأمن في المنطقة الحدودية.

ومن أهم هؤلاء الشيوخ خلال القرن الثامن عشر من فرع نصر: ابراهيم وابنه بوحفص اللذين حكما شؤون القبيلة توارثا لمدة أربعين سنة وتحديدًا فيما بين (1755-1795م)، فالقيام بوضع ترجمات لهم يمكننا من محاولة تجاوز الصورة النموزجية للشيخ، وتجاوز صورة الزعيم المنتفض والمتمرد، ورصد ممارسات الشيوخ كعنصر فعل اجتماعي تحركه المصالح الشخصية والقبلية من التعرض للاستراتيجيات الضريبية والمعاملاتية والمصاهراتية التي اتبعوها، ومحاولة فهم خلفياتهم وأسباب تحالفهم أو تمردهم على سلطة الباي أو الباشا.

الكلمات المفتاحية:

شيوخ قبيلة الحنانشة: ابراهيم؛ بوحفص؛ القرن الثامن عشر.

Summary :

Hananesh tribe elders endemic to the eastern borders of Beylik during the ottoman era are considered to be the most important local actors inside Beylik, and this importance is due to the social status enjoyed by the Ahrar Hananesha family, as well as the social and warehouse tasks and functions assigned by the elbeylik as tax levies and maintenance of security in the border region.

Among the most important of these 18th century elders of the Nasr branch : Ibrahim and his son Bouhafs, who reigned over tribal inheritance affairs for forty years, and more specifically between (1755-1795AD). So, making interpretations for them allows us to pass the typical image of cheicks as rebel leaders and monitor their practices as the element of social action motivated by the personal and tribal interests of the exposure to the tax to transaction and the fraternal strategies they were pursuing, and try to understand their origins and the reasons for their alliance or their rebellion against the authority of the Bey or the Pasha.

key words:

The sheikhs of the tribe Hananasha; Ibrahim; Bouhafs; Eighteenth century.

المقدمة.

لعب شيوخ القبائل خلال القرن الثامن عشر دورا كبيرا في تسيير شؤون قبائلهم وإدارة الأزمت المندلعة آنذاك، عاملين على حلّها والتشاور مع أعيان القبيلة من أجل المصلحة العامة، ناهيك عن عقدتهم تحالفات مع البايك أو مع شيوخ القبائل الأخرى، وقد برز العديد من هؤلاء

الشيوخ بفضل سلطتهم وقوتهم المادية والمعنوية، خلال تلك الفترة التي عمل فيها البايك بكل قوة على مخزنة القبائل وإحاقها بالبايك تدريجيا عن طريق التحالف وضمّان ولاء شيوخها.

واقترعت اغلب الكتابات التاريخية والسيّر على الجوانب السياسية لشيوخ القبائل، واكتفت بإبراز علاقاتهم مع السلطة وغضبت في المقابل الطرف عن حياتهم اليومية، وما يتخللها من ممارسات عملية كفاعلين داخل الحقل الاجتماعي الذي تحدده أساسا المصالح المتنافرة، وهذا الجانب ظل ضمن المسكوت عنه في تاريخ المشيخات القبلية.

ومن أهم هؤلاء الشيوخ في قبيلة الحنانشة المتوطنة في الحدود الشرقية لبايك الشرق الجزائري، الشيخ ابراهيم بن بوعزيز وابنه بوحفص، فمن هما هذين الشيوخين؟ وما هي أهم مهامهم المخزنية؟ وما هي الأسباب التي أدّت إلى ثورة ابراهيم على السلطة؟ وكيف كانت نهايته؟ وما هو موقف ابنه بوحفص من قتله على يد صالح باي قسنطينة (1771-1792م)؟ وما هي صورتهم في الكتابات التاريخية؟

للإجابة على هذه الأسئلة سنعمد في بحثنا على المنهج التاريخي لإبراز مسار الأب والابن وحياتهم، وسنكشف عن أهم المحطات التي مرّوا بها مستغلين المكانة التي حظي بها آبائهم وأجدادهم لدى السلطة في بلاط بايات تونس وقسنطينة، وسنتناول في هذا المقال العناصر التالية:

- الأصول العائلية .

- المهام المخزنية.

- الإحسانات والامتيازات.

- السجن من طرف البايك وصورة الزعماء المحليين في المصادر التاريخية.

1. الشيخ إبراهيم (1755-1772م).

هو إبراهيم بن بوعزيز بن نصر بن خالد بن نصر بن خالد الصغير شيخ الحنانشة سنة 1638م¹، وقد ذكر ابن خلدون أن أحرار الحنانشة ينحدرون من أسرة بربرية من قبيلة هوارا التي حكمت طرابلس ثم انتقلت إلى افريقية مع الفاتحين المسلمين، واستقرت بالمنطقة الغربية من البلاد، بأرض التلول من افريقية ما بين تبسة إلى مرماجنة إلى باجة².

ويذهب مؤرخ وادي سوف "محمد العدواني" إلى أن نسب أسرة الحنانشة يرجع إلى الخليفة "عمر بن الخطاب رضي الله عنه"³، وقد اقتبس مؤرخ وادي سوف حكمه من الروايات الشفهية التي سمعها من إخباري عصره، ويظهر أن شيوخ القبائل كانوا يفضلون إرجاع نسبهم إلى المشرق الإسلامي من أجل كسب الشهرة والاحترام أمام أفراد القبيلة.

غير أنّ المترجم العسكري شارل فيرو Charles Féraud الذي وضع تأريخاً لأسرة أحرار الحنانشة على شكل مقالات في المجلة الإفريقية، فيعتبر أنّ الديانة اليهودية انتشرت في قبيلة الحنانشة، وأنّ فرعاً من هذه القبيلة قدم مساعدات هامة للسلطة الفرنسية أثناء توسعها بقيادة فارس منهم هو يهودي الأصل، وأنّ القبائل كانت تتعمد إهانة الحنانشة بإرجاع أصولهم إلى: "حناش بن فناش بن فلاش بن حباس بن شالوم اليهودي"⁴، وقد ذهبت الباحثة جميلة معاشي في دراستها حول الأسر الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري خلال العهد العثماني، إلى نفس الطرح الذي ذهب

(¹) _ Charles Féraud, Les Harar Seigneurs des Hanencha, études historique sur la province de Constantine, in revue Africaine, n 18, année 1874, pp 394-396.

(²) _ ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط شحادة خليل، مراجعة زكار سهيل، ج6، د، ف، ط، ن، ت، بيروت، لبنان 2000م، ص 288.

(³) _ محمد بن محمد بن عمر العدواني، تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق سعد الله أبو القاسم، ع ، م، الجزائر 2001، ص 203.

(⁴) _ Op.cit, pp 30-31.

إليه شارل فيرو¹، ويظهر أنّ هناك اختلاف في ما جاء في المصادر حول هذه الأسرة وحول أصول عائلة الشيخ ابراهيم بن بوعزيز.

1-1. الظهور على الساحة.

حكم الشيخ ابراهيم فرع نصر من قبيلة الحنانشة ابتداء من سنة 1755م، وقد أحجمت المصادر التاريخية عن سبب عدم تولي ابراهيم منصب الشيخ عوض ابيه بوعزيز الذي قتل على يد علي باشا تونس وابنه يونس سنة 1739م.

ذكر المترجم العسكري شارل فيرو Charles Féraud أنّ هذا الشاب ومع مرور الوقت كبر بعيدا عن أعين والده بوعزيز، غير أنه وفي إحدى المعارك أصيب أبوه إصابة بليغة كانت تؤدي بحياته، فقام الابن بتقديم المساعدة لأبيه ونقله لتلقي العلاج وبقي بجانبه، وبالتالي اغتنم هذه الفرصة للبروز داخل قبيلته وأمام أنظار والده، وبمقتل ابن أخيه الشيخ سديرة بن طراد سنة 1755م، تولى إبراهيم مشيخة الحنانشة من فرع نصر².

كما أننا نجهل أسباب تولي الحفيد سديرة منصب الشيخ قبل عمّه (إبراهيم)، وقد يرجع هذا للخدمات القبلية والمخزنية التي قدّمها الحفيد سديرة، وقد يكون إبراهيم قد برهن على قدراته الحربية حينما كان يرسل أبوه مبعوثين عن القبيلة إلى حسين بن علي باي تونس وابن أخيه علي باشا أثناء الحرب بينهما (الحرب الباشية- الحسينية) في تونس (1728- 1740م)، وهذا حسب

(¹) _ جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م، دراسة اجتماعية سياسية، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، تحت إشراف أ. د: حسين حماد، جامعة قسنطينة، 1990-1991م، ص 32-33.

(²) _ Charles Féraud, op.cit, p 354.

الإشارات الواردة في الكتابات التاريخية، منها كتابات المؤرخ التونسي محمد الصغير بن يوسف في تلك الفترة، والذي أورد أن حسين بن علي كان يغدق على أحد أبناء بوعزيز المال مع مرافقيه، وأمر في إحدى المرات أهل القيروان بإطلاق إحدى وعشرين طلقة بارود احتفالاً بقدوم ابن بوعزيز، وهذا أثناء حصار الباي لجبل وسلات سنة 1728م¹.

وبالعودة إلى والدته التي نجهل اسمها فقد سكنت المصادر التاريخية عن ذكرها رغم شهرة زوجها بوعزيز، باستثناء حمودة بن عبد العزيز الذي أخبرنا بأنها قامت بدور المبعوث بين زوجها وأسيره محمد أخ علي، وهما أبناء حسين بن علي باي تونس سنة 1736م، والذي طلب منه أن يطلب أبوه حسين بن علي من باي قسنطينة إخلاء سبيل ابنه إبراهيم المحتجز عنده في سجن قسنطينة²، وبالتالي فإن أمّ الشيخ إبراهيم قد تدخلت بعد أن أسر ابنها، راجية تأثير مكانتها ووجاهتها على حسين بن علي وابنه وأن يتدخل لصالح ابنها.

2-1. سجنه سنة 1735م.

بعد رجوع حسن باي قسنطينة (1736- 1754م) من حملته على تونس سنة 1735م، اجتمع ببوعزيز شيخ الحنانشة، فقام الباي بإهانة بوعزيز واعتقل ابنه إبراهيم، وهو ما أدى بالأب إلى التمرد والتحالف مع علي ابن حسين بن علي باي تونس³، وسجن إبراهيم في قسنطينة، وهذا ما لم يستسغه أبوه بوعزيز، وقد عبر "ابن العطار" مؤرخ قسنطينة عن ذلك بقوله: "فقامت قيامة أبيه، وحلف أن يملأ أرض حسن باي خيلاً ورجالاً، ويخلي أرضه إلى مجانية"⁴.

(¹) _ محمد الصغير بن يوسف (ت 1763-1764م)، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي، ج 1، م، ع، تونس، 1998م، ص 149، 159، 164، 167.

(²) _ حمودة بن محمد بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، قسم السيرة، تحقيق محمد ماضور، ج 1، د، ت، ن، تونس 1970م، ص 280.

(³) _ حمودة بن محمد بن عبد العزيز، المصدر نفسه، ص 280.

(⁴) _ أحمد المبارك ابن العطار، تاريخ بلد قسنطينة، تحقيق وتقديم وتعليق حمادي عبد الله، د، ف، ط، ن، ت، قسنطينة، 2011م، ص 132.

غير أن بوعزيز قد عرض الولاء لعلي باي تونس بعد أن يقوم محمد باي بفك سراح ابنه من باي قسنطينة¹، وبالتالي فقد كان الشيخ إبراهيم ابنا غالبا على أبيه لدرجة أنه عرض خدماته على بايات تونس، مقابل توسطهم لدى باي قسنطينة ليطلق سراح ابنه، كما نرجح أن يكون الشيخ إبراهيم قد كوّن معارف وعلاقات ودّ مع أعضاء المخزن أثناء فترة سجنه.

إنّ المصاعب التي واجهها الشيخ كسجنه من طرف باي بقسنطينة، وهذا في بداية تمّتين وتركيز علاقاته داخل القبيلة وداخل إطار اجتماعي وسياسي ريفي تنافسي قائم على الصراع، الأمر الذي جعله أكثر قوة بسبب قوته وخبرته في مواجهة مثل هذه الظروف، دون أن ننسى الوفاة إلى القبائل الأخرى في مراحلها الأولى، والمغامرات السياسية المتمثلة في الإحتكاك بأعضاء المخزن عن قرب.

3-1. مخزنه.

كان لمشيخة الحنانشة في عهد الشيخ إبراهيم، حاشية وكتاب وخدم مستقلين بذاتهم عن حاشية الفرع الآخر تحت رئاسة محمد بن سلطان، وهو دليل على مدى قوة شيوخ الحنانشة في خلق توازنات داخل اتحاداتهم القبليّة، تهدف إلى المحافظة على كيانهم واستقرار مؤسساتهم كمؤسسة الشيخ أمام أتراك الجزائر وتونس الراغبين في فرض هيمنتهم على الرعية².

(1) _ المصدر نفسه، ص 280.

(2) _ توفيق بن زردة، الكنفدراليات القبليّة ودورها في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني -الحنانشة أنموذجا-، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تخصص العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير، تحت إشراف: أ، د، علاوة عمارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2013-2014م، ص 44.

جدول رقم 14: بعض موظفي الشيخ إبراهيم¹.

اسم الشخص	الوظيفة	اسم الشخص	الوظيفة
عمر بن بوزيان	كاتب	الشيخ إبراهيم	ساييس
السعيد بوزيان، محمد بن بوزيان	كاتب	العطافي	من الحاشية
علي بن بهلول، احمد بن مبارك،	سيار	رجب بن الغربي...الخ	سيار

كما كان لقلعة سنان شيخ يدير شؤون سكانها وهو يتبع شيخ الحنانشة، وكان اسمه "محمد السعدي" خلال الفترة الممتدة ما بين 1758-1763م، وجاء من بعده في الوظيفة "محمد ولد أحمد الصالح" عام 1764م، ليخلفه مرة أخرى محمد بن السعدي من سنة 1765م إلى سنة 1776م²، فدور المخزن أنه يقوم بعملية تسيير شؤون القبيلة وإدارة مصالحها، ودور الكتاب يتمثل في حمل الرسائل والخطابات الشفهية لمختلف الجهات.

4-1. أهم أعماله.

عند بناء زاوية أولاد سيدي تليل بفريانة سنة 1145هـ/1733م علي يد الشيخ أحمد التليلي، قدّم إبراهيم إعانات للزاوية، وبعد اكتمال بنائها واصل الشيخ إبراهيم دعمه لها عن طريق إعانة سنوية تسلم عينا وتتكون من أربعين (40) جملا بالإضافة إلى كميات معتبرة من الحبوب والمواشي³، كما كان الشيخ يبالغ في احترام الشيخ احمد التليلي ويؤكد ذلك بالمنح والعطايا⁴.

(¹)_ الأرشيف الوطني التونسي، الدفاتر الإدارية والجبائية، الدفتر رقم 2144، تاريخ 1170-1192هـ/1756-1779م، ص 210-220.

(²)_ توفيق بن زردة، المرجع نفسه، ص 117.

(³)_ محسن التليلي، زاوية الشيخ أحمد التليلي بفريانة، قراءة في أصول أولاد سيدي تليل وتاريخ مؤسستهم، ط1، م، ع، سوسة، تونس، 1998م، ص 50.

(⁴)_ المرجع نفسه، ص84.

من جهة أخرى، وفي إطار المهام المخزنية للشيخ إبراهيم، وبعد الخلاف الذي نشب بين يونس وأبيه علي باشا في تونس، وتوجه يونس نحو تبسة، سار إليه أحد أبناء الشيخ بوعزيز، (نرجح أن يكون الشيخ إبراهيم) حيث قام بالقبض عليه وتسليمه لباي قسنطينة¹.

وقد عمل إبراهيم على الثأر لأبيه بوعزيز، واتفق العديد من المؤرخين التونسيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومنهم محمد الصغير بن يوسف وحمودة بن عبد العزيز، وابن أبي الضياف، على الدور البارز للشيخ في توجيهه للمحلة الجزائرية على تونس سنة 1756م، وتثبيت أبناء حسين بن علي في الحكم بعد إبعادهم عن بلاط باردو لمدة 21 سنة، ففي عهد عشي حسن باشا الجزائر (1748-1755م) الذي أراد غزو الايالة التونسية، رفقة أبناء حسين بن علي (محمود باي وأخوه علي باي) اللاجئين عنده، بعث إلى شيوخ الحنانشة بفرعهم أن يجتمعوا جميعا ويجهزوا قومهم².

وقد كان إبراهيم هو المتسبب في الحملة الجزائرية على تونس، خصوصا بعد سجن حسن باي قسنطينة ليونس باي، فقدم الشيخ إبراهيم إلى باي قسنطينة بهدية، واشتكى له فرار رعيته إلى الايالة التونسية وتعذر عليه دفع الضرائب³، وطلب منه أن يكتب لعلي باشا تونس لإرجاع رعايا الشيخ إلى إقليمهم، فكتب باي قسنطينة علي باشا يطلب منه إرجاع رعية شيخ الحنانشة.

وكان ردّ محمد باي ابن علي باشا غير مقنع، فكتب شيوخ الحنانشة باي قسنطينة بجواب باي تونس وأنهم غير راضين⁴، وبالتالي كانت المراسلات بين باي قسنطينة وباي تونس تمر على شيوخ الحنانشة وبواسطتهم.

وقد ساهم الحنانشة بقيادة شيخهم إبراهيم بدور كبير في تثبيت الباي علي وأخوه محمد على رأس الايالة رفقة باي قسنطينة⁵، ونجحت المحلة الجزائرية في قتل علي باشا تونس سنة

(1) _ المشرع الملكي، مصدر سابق، ج3، ص 158.

(2) _ المصدر نفسه، ج3، ص 89.

(3) _ Charles Féraud, Les Harar..., op.cit, p 349- 350.

(4) _ المصدر نفسه، ج4، ص 14-13.

(5) _ حمودة بن محمد بن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 290.

1756م¹، وكان من بين الذين قتلوا محمد باي ابن علي باشا تونس فرسان قبيلة الحنانشة بالقرب من باردو، وهم من قبض فرسان على محمد باي ابن علي باشا².

5-1. الولاء لعلي باي تونس 1759-1782م.

كانت الحنانشة ضمن جيوش علي باي تونس (1759-1782م) (هو ابن حسين بن علي) لما انتفض إسماعيل بن يونس في جبل وسلات سنة 1759م³، وقد خصّ أبناء حسين بن علي شيوخ قبيلة الحنانشة بفرعها بإحسانات كبيرة وخاصة الشيخ إبراهيم⁴.

وبالتالي يمكن القول أن إبراهيم كان الشيخ الذي شهدت في مدة حكمه أكبر قيمة من الامتيازات والإحسانات التي تحصل عليها الحنانشة بفضلها، وقد استمر التحالف بين إبراهيم وأبناء حسين بن علي حكام الايالة التونسية، فقد جاء على سبيل المثال في دفاتر الضياف الخاص بالمبعوثين والرسول الواردين على البلاط الحسيني في النصف الثاني من القرن 11هـ/17م ما يلي: "قدوم بوغرة ومعه حنانشة سيارة الشيخ إبراهيم... سنة 1282هـ/ (1865م)"⁵، فكانت هناك استمرارية في العلاقات السلمية بين الشيخ إبراهيم وعلي باي تونس.

6-1. توسيع نفوذه.

شنّ الشيخ إبراهيم غزوة ضد قبيلة شارن الحدودية وغيرها من القبائل، بسبب رغبة صالح باي قسنطينة (1771- 1792م) بسط نفوذه على بايات تونس، ولأنّ قبيلة الحنانشة كانت تهيمن ولأكثر من قرن من الزمن على قبائل عديدة منها: شارن، الفراشيش، ورغمة، أولاد بوغانم، وغيرها من القبائل الجبلية كقبيلة ورغمة، وتعود أسباب الغزوة إلى ما بعد مقتل والده سنة

(1) _ أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة وزارة الشؤون الثقافية، ج2، د، ع، ك، تونس 1999م، ص 147.

(2) _ المشرع الملكي، مصدر سابق، ج4، ص 79-80.

(3) _ المصدر نفسه، ص 171.

(4) _ الدفتر رقم 2145، تاريخ 1191/ 1777-1778 إلى سنة 1197/ 1782-1783م، ص 160-170.

(5) _ الأرشيف الوطني التونسي، الدفاتر الإدارية والجبائية، دفتر الضياف، رقم 176، تاريخ 1201-1204هـ/ 1786-1789 م، ص 3-4.

1739م، حيث وقعت عدة ثورات من طرف هذه القبائل التي خرجت عن هيمنة أحرار الحنانشة واعترفت بسلطة بايات تونس، ومن أجل إرجاع ولأئها لبايات قسنطينة¹.

وهذا عكس ما ذهبت إليه الباحثة جميلة معاشي والتي اعتبرت أنه ببداية حكم إبراهيم بن بوعزيز بدأ ضعف أسرة أحرار الحنانشة، إذ لم يقم هذا الشيخ عكس والده بوعزيز بأي عمل من شأنه أن يؤدي إلى تقوية الأسرة والوقوف بها في وجه سياسة بايات قسنطينة وتونس الرامية إلى القضاء عليها نهائيا²، بل عمل إبراهيم على تنفيذ أوامر الحكام العثمانيين سواء بتونس أو بقسنطينة.

ومن المرجح أيضا أنه قد شنّ حربا ضد قبائل الفراشيش، فقد جاء في أحد الدفاتر الجبائية العائدة إلى بداية ستينيات القرن 12هـ/18م ما يلي: "خطية على الفراشيش أربعة آلاف وخمسمائة كبش بغزوتهم مع الحنانشة تعين خلاصهم على يد قايدهم المذكور (محمد بن عثمان سنة 1176هـ)"³.

وقد أصبح إبراهيم على رأس قوة ضاربة في المنطقة الحدودية، فقد خضع له سكان شرقي الاوراس (تبسة)، وأصبح حاكما على الجميع إلى واحة الفيض في الزاب الشرقي، كما قضى على عصيان النمامشة في معارك عديدة أهمها معركة واد مونطانا قرب فركان، أما أولاد سيدي يحي فطردهم من جبل الدير، ولاحقهم إلى سفوح الأوراس أين فروا ملتجئين ومحتمين بها⁴.

مما يبين أن الشيخ إبراهيم كان يتمتع بصفات فروسية كبيرة أراد من خلالها استرجاع مجد أبيه، وقد ترك صالح باي (1771-1792م) الشيخ إبراهيم يشن الحرب ضد النمامشة وقبائل

(¹) _ Charles Féraud, Les Harar..., op.cit, p 354.

(²) _ جميلة معاشي، مرجع سابق، ص 267.

(³) _ الأرشيف الوطني التونسي، الدفاتر الإدارية والجبائية، الدفتر رقم 120، تاريخ 1175-1181هـ / 1761-1768م، ص 47.

(⁴) _ بيار كاستال، حوز تبسة، تعريب وتحقيق وتقديم العربي عقون، م، ب، ح، الجزائر 2010م، ص 176.

أولاد يحي بن طالب وسكان الأوراس الشرقي الذين كانوا يرفضون الخضوع للسلطة، ووضعهم تحت نفوذ شيوخ الحنانشة، واستمرت هذه المعارك لفترة طويلة¹.

غير أنّ صالح الباي استطاع التفريق بين القبائل وشيوخها واستخدامه لسياسة "فرق تسد"، من خلال عمله على شنّ الحرب بين إبراهيم وابنه بوحفص الذي كان آنذاك شيخا لقبيلة النمامشة، وقد نجح الباي في مبتغاه، حيث دارت الحرب بينهما في هضاب منطقة بكارية بالقرب من تبسة، وفي إحدى الأيام وبعد توقف الفرسان ليلا بهدف اخذ استراحة ومواصلة الحرب في اليوم الموالي، ظهرت إحدى الأغاني الشعبية في معسكر قبيلة الحنانشة، ومما جاء فيها²:

بركانا يا بوحفص بركانا

واد شبرو حدانا

بركانا بركانا هذا الفتن قضانا

وتحدثت القصيدة عن فتاة تسمى فطيمة زوجة بوحفص وهي فتاة جميلة وشابة، كانت قد بقيت في زمالة الشيخ إبراهيم عند قبيلة الحنانشة، وتنحدر من عائلة تنتمي لقبيلة النمامشة، وحسب ما يظهر في الشعر المحلي فقد اتهمت بالزنا مع الشيخ إبراهيم وهو أب زوجها، بهدف التفريق بين الأب وابنه، وفي اليوم الموالي للمعركة وبدلا من القتال وسعيا لوقف الحرب، أمر بوحفص بعض أتباعه بالتوجه إلى زمالة الحنانشة واسترجاع زوجته، ثم جمع فرسانه وأعلن انفصاله عن أبيه، وقد رجع إبراهيم إلى موطنه بالحنانشة، ورجع بوحفص رفقة النمامشة إلى موطنهم عبر تامزة في الجنوب³.

ومن مهام الشيخ إبراهيم أيضا أن صالح باي أرسل إليه باش سياره ابن زكري يطلب منه الاستحواذ على إبل إحدى القوافل التجارية التي تحتوي على 2000 من الإبل متجهة إلى التل، ناقلة الحبوب إلى قبيلة النمامشة المتمردة على الباي، وصادر الشيخ إبراهيم القافلة رغم احتجاجات

(1) _ Op.cit, p 354.

(2) _ Charles Féraud, Les Harar..., op.cit, pp 354-355.

(3) _ للإطلاع على القصيدة كاملة أنظر:

- Charles Féraud, Les Harar..., op.cit, p 356.

أولاد سيدي عبيد القائمين على زاويتهم (سيدي عبيد) مؤكدين على أن القافلة ملك لهم وليست لقبيلة النمامشة¹، وبالتالي فقد قدم الشيخ خدمات عسكرية للبايلك ساهم في توطيد صلاته بالسلطة.

7-1. تلقيه لإحسانات من بايات تونس.

يرى الأستاذ والباحث التونسي حمادي دالي أن امتيازات التي منحها بايات تونس لشيخ الحنانشة التي تلقوها منذ منتصف القرن 12هـ/18م، جاءت لتحبيد هم وفق سياسة إستراتيجية تتمثل في شمولية هذا الإحسانات لكامل فرعي الحنانشة وتواصله في الزمن لفترة نصف قرن²، كما كان أعيان الحنانشة يحصلون إلى أواخر هذا القرن مثل حكام الجزائر على عوائد وإحسانات وهي عبارة عن مواد متنوعة كالسروج المطرزة والكساوي الثمينة³.

فالإحسان عبارة عن امتيازات مادية، وقد يكون عبارة عن سلفة يقدمها البايك للأعيان والوافدين، بغية جلب مواد أو سلع لمدينة تونس، وتعتبر الإحسانات التي تلقاها فرع نصر خلال حكم الشيخ إبراهيم (1755-1772م) هي الأكبر، حيث تحصل فرعه على مبلغ 29011,939 ريال⁴، وهو مبلغ كبير جدا مقارنة بما أخذه فرع منصر أو القبائل الأخرى، وتلقى الشيخ إبراهيم الذي كان يدير قبيلة الحنانشة باستقلالية في تلك المرحلة، هدايا معتبرة نجمها في الجدول التالي.

جدول رقم 15 : قيمة الإحسانات التي تلقاها الشيخ إبراهيم⁵.

(1) Eugène Vayssettes, histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517-1837 présentation de Ouarda Siari-Tengour, éditions Médias-plus, Constantine, 2010, p 144.

(2) حمادي دالي، النفوذ المحلي بالبلاد التونسية وتشكل الدولة الترابية 1574م-1877م، قراءة في العلاقة بين القبيلة والزواية والبايلك، أطروحة الدكتوراه، إشراف: أ. عبد الحميد هنية، جامعة تونس الأولى، 2003-2004م، ص 383.

(3) فاطمة بن سليمان، الأرض والهوية نشوء الدولة الترابية في تونس 1574-1881، م، ا، تونس 2009م، ص 210-209.

(4) الدفتر رقم 2144، تاريخ 1170-1192هـ/ 1756-1779م، ص 210-220.

(5) الدفتر نفسه، ص 210-220.

السنة	نوع الإحسانات	قيمتها بالريال
1174هـ/1760م	برنوس	68
1175هـ/1761م	- سرج متموم ميزان سقططة رطلين وثمانية أوراق ونصف الأوقية مجرة للدير والعزار وحق تسعة بنادق للتذهيب...الخ - حق ركاب حديد وستة بنادق لتذهيب وأجرة الوشاي وحق فضة كسوة الدين - حق ذهب	2496 75,10 229
1177هـ/1763م	- 300 حمل تمر ولأصحابه 20 حمل تمر وحق 17 مطر زيت قفصي و 7 قناطر صابون و 1700 دينار	1546
1178هـ/1764م	- رطل واحد وأوقيتين مجرة لزناد وهي مكحلة الشيخ واجر الصايغ	73,06
1184هـ/1770م	- هدية تتمثل في زوج صنادق مجلدين، زوج قفاطن موبر، زوج كبايات موبر ومثلهم فرامل وحدادي، زوج برانس ملف بالفضة، زوج سراول كمخة، 4 صناديق مجلدين.	لم تذكر قيمتها
1185هـ/1771م	- عادت الشيخ إبراهيم عوض 300 حمل تمر من الجريد 1500 دينار. - سرج متموم ستارة مطروزة.	923,04 لم يذكر قيمتها
1187هـ/1773م	- عوايد الشيخ عند العام هدية: سرج متموم، مجزومة وبلاسكة، قفطان موبر، كباية موبر، سراول كمخة، جرمد كمخة، صردية كمخة، برنوس ملف.	1108,09
المجموع		6518,09

تلقى الشيخ إبراهيم هدايا وامتيازات كبرى، جاءت بعضها ضمن ما يسمى بـ "العادة"،
فدوام العادة هنا يعني تواصل الإنتفاع من تلك العلاقة التي تربط المتنفس المحلي بالسلطة المركزية.

أي تواصل اعتراف هذه السلطة بالدور الذي يؤمنه المتنفس المحلي¹، وقد تنوعت الإحسانات ما بين سروج وبنادق وفضة وذهب، بالإضافة إلى مواد أخرى كالتمر والزيت والصابون وصناديق مجلدة وألبسة من القفطان والبرانيس وغيرها، دون أن ننسى الغنائم التي استحوذ عليها فرسان قبيلة الحنانشة الذين نهبوا القصبه بعد أن ترك علي باشا بابها مفتوحاً²، بعد فراره سنة 1756م أمام محلة أتراك الجزائر.

8-1. طلب صالح باي مصاهرتة ونتائجها.

طلب صالح باي (1771-1792م) من إبراهيم مصاهرتة بزواجه من ابنته بغرض الإتحاد، غير أن إبراهيم قد رفض طلبه وبعث رسالة اعتذار، ويرى فيرو أن البنت هي من رفضت الزواج منه³، فعزل الباي الشيخ، واستخلفه بابنه بوحفص الذي شنّ حملة ضد أبيه⁴. وقد وصف الورتلاني ملاحقة الباي للشيخ بقوله: "إبراهيم قد فرّ من باي قسنطينة لما تبعه بعساكر يريد الانتقام منه لأمر ديني، وهو استطالته على المسلمين وتمرده على الأحكام الشرعية، وأنه كان يتزوج أكثر من أربع، وقد سمعت أنه بلغ اثنتي عشرة امرأة..."⁵، إذن فالورتلاني يرجعها لأسباب دينية، لكن، هل يمكن التسليم بقول الورتلاني؟ أم أنه اتهام للشيخ في ظل سعي العلماء إلى الدفاع عن شرعية السلطان المتمثل في الباي ضد الشيخ المحلي المتمرد على السلطة؟

جاء في دفاتر الإحسانات أن بايات تونس قد قدموا إحساناً لامرأة "حناشية عيال فرحات التي أخذها الشيخ إبراهيم"⁶، وهو ما يؤكد أن الشيخ كان مغرماً بالنساء ومتزوجاً للعديد منهن،

(1) حمادي دالي، المرجع السابق، ص 59-60.

(2) أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص 151.

(3) Charles Féraud, Les Harar..., op.cit, p 357.

(4) Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Imprimeurs-Éditeurs 51, Rue Damrémont, 51, Constantine, 1903, p 284.

(5) الحسين بن محمد الورتلاني، الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ج1، ط1، م، ا، ث، د، ن، ت، الجزائر 2011م، ص 287-288.

(6) - الدفتر رقم 2144، تاريخ 1170-1192هـ/ 1756-1779م، ص 215.

ويظهر في هذه الحالة أنه أخذها عنوة من زوجها فرحات، وبالتالي فقد كان الشيخ مخالفا لتعاليم الدين الإسلامي، غير أنه لا يمكن التأكيد على أنه السبب الوحيد وراء شنّ الباي للحرب على الشيخ.

أما عن علاقة صالح باي بالشيخ، فتذهب الباحثة جميلة معاشي إلى أنّ وضع قبيلة الحنانشة وشيوخها في عهد صالح باي (1771-1792م) قد عرف ضعفا كبيرا بسبب انتهاج الباي لسياسة القبضة الحديدية على جميع الأسر ذات النفوذ ببابلك قسنطينة¹.

ولم يسهب فيرو Féraud كثيرا حول نهاية الشيخ إبراهيم في سجن القصبة بقسنطينة، سوى إفراده لسطين أو ثلاثة حول مقتله، فبعد أن رفض الشيخ مصاهرته لصالح باي، هذا الأخير غضب وشنّ للعديد من الغزوات ضد قبيلة الحنانشة، وعزل إبراهيم من منصبه وعين مكانه ابنه بوحفص المدعوم من طرف القوات التركية، وفر إلى قلعة سنان حيث قبض عليه هناك، واقتيد إلى قسنطينة ووضع في السجن حيث قتل هناك²، وبالتالي فقد كانت نهاية الابن تشبه نهاية أبيه، غير أن الأب والابن كانت لهم وقائع شهدت بانجازتهما لصالح القبيلة من جهة، ولصالح البابلك من جهة أخرى.

2. الشيخ بوحفص بن إبراهيم (1772-1795م).

لم يكن لأي فرد من الأفراد أن يشغل منصب الشيخ داخل القبيلة، فقد كان الأمر حكرا على أسرة الشيخ الوراثية. غير أنّ العملية تتم بالتدرج عندما يكلف الشيخ ابنه بمهمة المبعوث، أو قائد قبيلة صغيرة منصوبة تحت القبيلة الأم، مما يمكنه من الإحتكاك بالموظفين والحكام، بدءا بالخليفة فالباي وأخيرا الباشا، وهو ما يؤدي إلى اعتراف البابلك بأحقّيته في الحكم بعد وفاة أبيه، إذا كان الباي راضيا على خدماته، ومتوقعا منه استمرارية الولاء في المستقبل.

(¹)_ جميلة معاشي أسرة أحرار الحنانشة بين بايات قسنطينة وبايات تونس، المجلة التاريخية المغربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 128، سنة جوان 2007م، ص 147-162، ص 160-161.

(²) _ Charles Féraud, Les Harar., op.cit, pp 357- 358.

1-2. ظهوره على الساحة.

كانت الفترة السابقة لولاية كل شيخ بمثابة مرحلة "اختبار وتمرس" على التسيير، اكتسب الأبناء القدر الكافي من الخبرة والتجربة، ما يجعله يحظى بثقة البايك الذي فضلهم على بقية الوجهاء بالقبيلة.

شجع الأب إبراهيم ابنه بوحفص على الانخراط في تحقيق طموحاته وطموحات الأسرة، ويظهر هذا من خلال تنصيبه شيخا على قبائل النمامشة، وإن كان الأب "يشرك" ابنه في التسيير، فإنه يبقى في النهاية صاحب السلطة العليا والراسم لحدود التصرف والمالك لمفاتيح الأمور، وقد قام صالح باي بخطبة ابنة إبراهيم، ورفضت البنت الزواج منه، فعزل الباي الشيخ، واستخلفه بابنه الذي شنّ حملة ضد أبيه¹.

ولكن استلامه الحكم المحلي لم يكن فقط حصيلة ثقة السلطة المركزية في شخصه، بل أيضا نتيجة صراع طويل بين أصحاب النفوذ داخل القبيلة وداخل المنطقة، وفرض الأبناء خلال القرن 12هـ/18م أنفسهم كأكبر مرشحين لمنصب شيخ القبيلة وأزاحوا من طريقهم بقية المتراهنين على الزعامة، مستخدمين في سبيل الوصول إلى الوظيفة عمليات إقصاء وتحبيد ومجابهة وتحالف، بينت مؤهلات عريضة وكفاءة قيادية عالية.

ونرجح أيضا أن الشيخ إبراهيم قد حرص على ضمان انتقال القيادة إلى أبنائه من بعده، وهي مسألة طبيعية في مجتمع منتظم على أساس المبدأ السلافي، ويمكن كذلك فهم أهمية هذا النجاح للشيخ الجديد باعتبار أطراف أخرى كانت تدعي حقها في نفس الفضاء الجغرافي الزعامي، ويظهر في دفاتر الإحسانات أن بوحفص ظهر على الساحة السياسية للقبيلة بداية من سنة 1185هـ/1771م، وصارت له وفود مع بايات تونس قبل وفاة والده، وقد تشكل مخزنه في فترة حكمه من العديد من الموظفين²، والجدول التالي يبين أسماء بعضهم ومهامهم.

(¹) _Ernest Mercier, op.cit, p 284.

(²) _ الدفتر رقم 2144، تاريخ 1170-1192هـ/1756-1779م، ص 217.

جدول رقم 16:مخزن الشيخ بوحفص.

اسم الموظف	الوظيفة
عثمان اليعلاق	كاتب
رمضان الحناشي	سيار

2-2. إحسانات فرع نصر خلال فترة حكمه.

استمرت الإحسانات التي تلقاها فرع نصر الحنانشة في عهد بوحفص (1772- 1795م)، وقد دلّ على ذلك الدفتر الجبائي رقم 2145، غير أنها كانت ضئيلة مقارنة بما ناله الفرع في عهد أبيه، وتحصل الفرع على مبلغ مالي يقدر بـ 6840 ريال¹، وتحول الإحسان الذي كان يتلقاه الشيخ إبراهيم بن بوعزيز إلى عادة يقدمها الباي إلى الشيخ بوحفص وأصحابه فقد جاء في نفقات سنة 1187هـ/ 1773-1774م ما يلي:

- 1108 ريالات : اعوايد شيخ الحنانشة أولاد نصر وأصحابه من الجريد في هذا العام، وقد تم تفصيل مكونات هذه العادة بكل دقة في نفقات سنة 1191هـ/ 1777- 1778م، أي بعد مضي 15 سنة عن تأسيس هذه العادة فذكرت على النحو التالي:

- 1099 ريال: إحسان بحق 326 حمل تمر منهم 300 عادة الشيخ بوحفص وستة عشر عادة أصحاب الشيخ المذكور و 10 حمول عادة أحمد بن بوزيان مع 68 ريال حق 17 مطر زيت قفصي مع 28 ريال حق 7 قناطر صابون عادة الشيخ في سنة 1190هـ/ 1776م. صرفت في 15 صفر 1191هـ/ 1777م.

(¹)_ الدفتر رقم 2145، تاريخ 1191- 1197هـ/ 1777- 1783م، ص 168- 170.

إن نفس الكميات التي قدمت كإحسان لشيخ الحنانشة في سنة 1176هـ/ 1762-1763م، قدمت له بعد 15 سنة لكن ليس كعادة وليس كإحسان مما يشير إلى نوع من العلاقة التعاقدية بين زعماء الحنانشة وباي تونس، تعكس نوعاً من التبعية المتبادلة بين الطرفين، فزعماء الحنانشة هم في حاجة إلى التزود بالموثونة (التمر والزيت) ومواد التنظيف التي هي من احتكار الدولة (الصابون) وفي مقابل ذلك يحتاج باي تونس إلى ولاء الحنانشة له كما حدث ضد الوصالية إبان ثورة إسماعيل بن يونس، أو مستقبلاً بعد التدخلات الجزائرية في الأيالة التونسية¹.

جدول رقم: إحسانات للشيخ بوحفص (1772-1795م)².

السنة	نوع الإحسانات	قيمتها بالريال
1191هـ/ 1777م	- عشرين حمل تمر منهم 300 ريال عادة الشيخ بوحفص، هدية، ستارة موبرة، سقطة، ركاب مذهب.	1108
1192هـ/ 1778م	- عادة الشيخ بوحفص	1099
1194هـ/ 1780م	- أجر الطابع على ضمان طابع للشيخ بوحفص	32
المجموع		2239

يلاحظ أن بوحفص تلقى هدايا وإحسانات هامة رفقة أبيه إبراهيم و الفرع الآخر بزعامه محمد بن سلطان، واشتملت هدايا بوحفص على هدايا وعوايد تمثلت في الذهب والركاب وطوايع وغيرها.

2-3. ثروته.

خلال العقدين الأخيرين من القرن 12هـ/ 18م وبالصبط فيما بين 1783م و1803م، عرفت خلالها الأيالة تصدير كميات كبيرة من الحبوب وارتفاع أسعارها واستصلاح الكثير من الأراضي

(¹) حمادي دالي، مرجع سابق، ص 384.

(²) الدفتر رقم 2145، تاريخ 1191-1197هـ/ 1777-1783م، ص 168-170.

الزراعية، مما عاد بالفائدة على السلطة المركزية والبايات وشيوخ القبائل وزبائنهم من التجار وملاك الأراضي، وأصبحت هذه الفآت الحاكمة تتطلع إلى منتجات الترف القادمة من أوروبا¹.

ويمكن القول أن بعض فترات ازدهار الايالة يساهم في إثراء الشيوخ المحليين المتعاملين مع الشركة الإفريقية²، كما تساهم المداخل المالية الكبيرة في ترسيخ الاستقرار السياسي الذي عرفه عهد محمد عثمان باشا (1766-1791م).

4-2. مصاهرات شيوخ الحنانشة مع البايات وشيوخ القبائل.

كُون شيوخ الحنانشة العديد من علاقات المصاهرات مع بايات تونس وقسنطينة، بالإضافة إلى العديد من المصاهرات مع شيوخ القبائل الأخرى التي بلغت 14 مصاهرة³، أشارت الأستاذة معاشي إلى أنه كانت هناك بعض المصاهرات بين شيوخ الحنانشة والإنكشارية، ومن بين

(¹) _ المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخل، ج1، د، ق، ن، الجزائر، 2009م، ص 151-152.

(²) _ قدّر الباحث يعقوب خديجة قيم مالية حول ثروة شيوخ الحنانشة خلال القرنين 11-12هـ/ 17-18م ومنها:

- 2 من شيوخ الحنانشة خلال القرن 11هـ/17م كانت لهم ثروة كبيرة جدا، هما الشيخ خالد الصغير (1638-1644م) والشيخ سلطان (1677م) من فرع منصر.

- 3 شيوخ من القرن 12هـ/ 18م كانت لهم ثروة طائلة، انتقلت من الأب إلى الابن إلى الحفيد وهم: الشيخ بوعزيز بن نصر (1704-1739م)، ابنه إبراهيم، وحفيده بوحفص، وما يلاحظ هو أن الثروة تراكمت داخل فرع نصر في غياب معلومات عن ثروة فرع منصر، لمزيد من الاطلاع أنظر:

- يعقوب خديجة، شيوخ القبائل ومؤسسة المشيخة في بايلك الشرق الجزائري والوسط الغربي التونسي من 1700 إلى 1860م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث LMD في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر: تاريخ وحضارة، تحت إشراف أ. د. فاطمة الزهراء قشي، جامعة قسنطينة 2- عبد الحميد مهري، 2017-2018م، ص 206.

(³) _ Leila babes, op.cit, pp 279-280.

بناتهم التي تزوجت بانكشاري ابنة إبراهيم بن بوعزيز¹، وغيرها من المصاهرات الأخرى²، مكونة من خلالها تحالفا وتضامنا مع شيوخها ضد الأخطار الخارجية وتدعيما للنفوذ المحلي وكسب لموارد مالية جديدة.

3. صورة شيوخ الحنانشة في الكتابات التاريخية خلال القرن 12هـ/18م: " وسائل السوء والشياطين".

كانت كتابات مؤرخي القرن 12هـ/18م تسير في نفس اتجاه سابقيهم الذين أعطوا صفات شنيعة تخص القبيلة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر³، باستثناء الطبيب والرحالة الفرنسي "جان أندري بايصونال" "Peyssonnel"، والذي زار بايلك قسنطينة وتنقل في مختلف أرجائه سنة 1724م، وبالعودة إلى المؤرخ التونسي الوزير السراج المتوفى سنة 1149هـ/1736-1737م⁴، فقد اعتبر أن شيوخ الحنانشة: "وسائل السوء"⁵، لتستمر تلك النظرة التشيعية لشيوخ الحنانشة.

أمّا الرحالة الفرنسي بايصونال Peyssonnel، فقدّم صورة مشرفة عن "بوعزيز" الذي كان متحالفا مع شيوخ القبائل الأخرى، ويحظى باحترام من طرف قبيلته التي لقبته "بالسلطان"، كما كان معجبا ببطولة ابنته علجية⁶، وبالتالي فبايصونال يعتبر أول مصدر أنصف هذه المشيخة

(¹)_ جميلة معاشي الانكشارية والمجتمع ببائلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، تحت إشراف: أ. د. كمال فيلاي، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008م، ص 119.

(²) _Op.cit, pp 279-280.

(³)_ لمزيد من الاطلاع حول تلك النظرة الدونية التي رسمتها مختلف المصادر المحلية والأجنبية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، أنظر:

- يعقوب خديجة، مرجع سابق، ص 339-341.

(⁴)_ أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون خلال القرون 17 و 18 و 19، دراسة في التاريخ الثقافي، ترجمة أحمد عبد السلام، عبد الرزاق الحليوي، ب، ح، ق، تونس 1993م، ص 237.

(⁵)_ محمد بن محمد الأندلسي المعروف بالوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق الحبيب محمد الهيلة، ج3، د، غ، ا، بيروت، لبنان، 1985م، ص 29.

(⁶) _ Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les régences de Tunis et Alger, Paris 1838, pp 292- 295.

المتعاطمة النفوذ آنذاك، خصوصا وأنه قد رأى وحشية المحلة وقيامها بالنهب والقتل داخل قبائل أرياف البايك.

وبالنسبة لرحالة آخر في نفس الفترة وهو الانجليزي طوماس شاو Shaw، فقد وصف قلعة سنان بأنها ملاذ للمتمردين¹، وشنَّع على المجال الجغرافي الذي تستوطن فيه القبيلة دون أن يذكر شيوخها، ومن المرجح أنه لم يلتق بهم لذلك غابت النعوت.

جاء الدور على الرحالة وعالم النبات الألماني هابنسترايت الذي زار الجزائر وتونس سنة 1732م، وقد وصف الشيخ بوعزيز بأنه: "... يمارس كل أنواع الإجرام في البلاد" في ضواحي منطقة القالة المتواجد بها المركز التجاري حصن الباستيون²، غير أننا نعتبر أن ممارسات الشيخ بوعزيز منطقية ومقبولة، فقد صرَّح هذا الرحالة في وقت سابق أن الباي هو من فرض نظام "الالتزام"، وقد حدَّده بمبلغ كبير يتطلب من الشيخ جباية أكبر قدر من الضرائب لدفعها من جهة، وإرضاء الباي بمبلغ الالتزام من جهة أخرى.

أما المؤرخ التونسي محمد الصغير بن يوسف فيعتبر أكبر مصدر تاريخي شنَّع على شيوخ الحنانشة خلال القرن 12هـ/18م وخلال العهد العثماني بأسره، باعتباره مواليا للباي حسين بن علي، وقد اقتبس أوصافه وأقواله من مفردات أو آيات قرآنية كاملة، فقد ذكر أكثر من 20 مصطلح وعبرة تدل على كرهه لشيوخ الحنانشة بوعزيز من فرع نصر، وأحمد الصغير وسلطان من أولاد عمار.

ومن بين هذه المصطلحات: "فمثله كمثله الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين" وهي آية قرآنية³، وقوله "... لا يعرفون للعباد إلا القتل والذبح ولا يريدون للخلف إلا الخسارة وقلة الربح"، وهم "من أول الزمان أهل فساد"، بوعزيز

(¹) -Tomas Shaw, Voyage dans la régence d'Alger ou description Géographie, Physique, Philologique, etc. cet État, traduit de l'anglais par J, Mac Carthy, Paris, chez Marliv, Editeur, 1830, p 206.

(²) - هابنسترايت، ج، أو، رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ/ 1732م، ترجمة وتعليق وتقديم سعيدوني ناصر الدين، د، غ، إ، بيروت، لبنان، 2007م، ص 96-97.

(³) - المشرع الملكي، مصدر سابق، ج1، ص 160.

الغدار، أهل فساد، وبیت طغو وعناد"¹، وغيرها من المصطلحات الذميمة التي شنع بها شيوخ الحنانشة وأجدادهم.

هذا دون أن ننسى أن المؤلف الكرغلي قد فقد أملاكاً وثروة حيوانية خسرها بعد أن أغار الشيخ بوعزيز على عرش الزواغة بالقرب من باجة أثناء اندلاع الحرب الأهلية سنة 1728م، وهي من بين الأسباب التي أدت إلى رسمه لهذه الصورة، والتي تتداخل فيها أسباب ذاتية.

وقد امتد هذا التشنيع حتى إلى الرحالة المغاربة خلال نفس الفترة، فيقول الرحالة الجزائري "الحسين الورتيلاني" عن الشيخ إبراهيم ما يلي: "استطالته على المسلمين وتمرده على الأحكام الشرعية"، "عدو نفسه"، "قدعونا له بالهداية"²، وهي كلها مصطلحات توحى بأن الشيخ بعيد عن تعاليم الإسلام، واعتبر الرحالة نفسه من الفقهاء الذين هم المنتجين الحقيقيين لأحكام الشريعة والمنفذين لها في آن واحد، طالما أن الباي قد أوكّل له مهمة محاربة بعض الاعراش "المتمردة"³.

أما المؤرخ التونسي حمودة بن عبد العزيز صاحب "الكتاب الباشي"⁴، فأورد أيضاً عبارات تنم عن كرهه لشيوخ القبيلة، وقد رجّع إلى خالد بن نصر في النصف الأول من القرن 11هـ/17م، وأعطى نفس النعوت التي أعطاها ابن أبي دينار، وهو ما يدل على أنه اقتبس من عنده، كما وجه تشنيعاً للشيخ بوعزيز واصفاً إياه بـ "زعيم العرب المشهور بالدهاء والمكر"⁵. إذن فقد اتفقت معظم مصادر القرن 12هـ/18م على صفة المكر التي تمتع بها بوعزيز، وستستمر هذه الصفة حتى لدى

(1) المصدر نفسه، ص 148-150.

(2) الورتيلاني، مصدر سابق، ج 1، ص 287-288.

(3) المصدر نفسه، ص 287-288.

(4) لمزيد من الاطلاع حول هذا المؤرخ، انظر كلا من:

- أحمد عبد السلام، مرجع سابق، ص 289-305.

- عبد الحميد هنية، تونس العثمانية، العثمانية: بناء الدولة والمجال (ق 16-19م)، م، ت، ز، تونس 2012م، هامش صفحة 192.

(5) - بن محمد بن عبد العزيز حمودة، مصدر سابق، ص 280.

إخباري القرن 13هـ/19م كابن العطار الذي قالها صراحة رغم مرور أكثر من قرن على موت هذا الشيخ، بالإضافة إلى المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف.

الخاتمة:

كانت مؤسسة المشيخة خلال القرن 12هـ/18م لدى فرع نصر تجمع بين اللقب والوظيف والمكانة، تطورت مع مجيء العثمانيين وقد استمر تواجد هذه المؤسسة داخل القبيلة، غير أن مؤهلات القيادة قد تغيرت من قبيلة لأخرى، كما كان الشيخ موظف مخزني يختار من القبيلة، غير أنه يجب تزكيته من طرف الباي، فكانوا يعيشون في استقلالية عن البايلك يأمرهم، ويتخذون قراراتهم بأنفسهم فيتخالفون، مع أي طرف يرون فيه مصلحتهم.

مثلت خاصية التوارث لدى فرع نصر من قبيلة الحنانشة خلال القرن الثامن عشر قاعدة محترمة نسبيا، فبعد أن تولى الشيخ إبراهيم الرئاسة سنة 1755م، لم تخرج من نسله ومن عقبه إلى غاية سنة 1827م، تاريخ ارتقاء فئة كتاب الشيخ متمثلة في عائلة الرزقي إلى منصب المشيخة. ولم يسعى الشيوخ خلال هذه الفترة على قتل أندادهم داخل العائلة، احترمو دورهم في تولي المنصب، كما كان عدم الولاء للبايات والتمرد عليهم يؤدي إلى سجنهم وقتلهم، فظهر "السجن" كمؤسسة عقابية للشيخ المعارض خلال هذا القرن، وقد مثل الشيوخ إبراهيم وابنه بوحفص أبرز شيوخ القبائل على مستوى البايلك في تلك الفترة.

وقد حظي هؤلاء الشيوخ بامتيازات كبيرة من طرف بايات تونس، فعرف النصف الثاني من القرن الثامن عشر امتيازات كبرى نالتها العديد من المشيخات القبلية، واحتل فرع نصر من قبيلة الحنانشة الصدارة في تلقي تلك الامتيازات التي تدخل ضمن الإحسان والعادة.